السخرية وتقنياتها في القصة القصيرة السورية

عادل عطا الله الفريجات، جامعة دمشق، سوريا

❖❖❖❖❖

ملخص

السخرية - عند الباحث - مفهوم يتصل بالفكاهة والتهكم والهزل، وهي وسيلة فنية لإعادة إنتاج الواقع . وكاتب السخرية يستخدم آلة تصويره مبدلا النسب بين عناصر الصورة، مكبرا الصغير أو مصغرا الكبير، واقفا في زاوية قد لا يقف فيها الناس جميعا، ليرى الصورة على نحو مخالف لرؤية الآخرين لها، وذلك لتكريس قيم آمن بها المجتمع، ومهاجمة تطرف وغلط وشطط ينفر الناس، مما يسهم في استتباب المفاهيم والقيم، ويشجع على السلوك السوي والسليم. انتهى البحث إلى تشخيص مجموعة من التقنيات منها: إنهاء القصة بقفلة تسخر من كل مجرياتها؛ ومنها مزج الماضي بالحاضر بحيث يغيب التمييز بينهما، فيقع بعض شخصيات القصة بالوهم ويثير الهزء؛ ومنها قيام بعض القصص على المشهدية، وعدم اقتصارها على الحوار؛ ومنها الاهتمام بالمفارقة التي تعد ركنا من أركان السخرية، والتي تشبه ذرة الملح التي تجعل الطعام مقبولا كما يقـــول توماس مان.

Abstract

Satire is for the scholar a concept which has much to do with humour, sarcasm, and comedy, and is an artistic means of reproducing reality. The satirical writer alters the proportions of the elements contained in his duplicated picture, like scaling down large objects or enlarging small ones, to help his audience see the common world differently in an attempt of consolidating the socially accepted values and discrediting the unusual and unacceptable ones. The aim of the present study is to consider the works of some Syrian satirical novelists like Abd Alsalim Alojaily, Hassib Kialy, Zakaria Tamer and Khateeb Badla. The hope is that the results we came to could be said characteristic to Syrian satirical literature.

❖❖❖❖❖

لا ريب في أن السخرية تمت إلى عالم الفكاهة والتهكم والهزل بصلات مختلفة، بيد أنها ليست بلا هدف، وخاصة إذا صيغت في سرد قصصي يكتب ليوجه وينقد ويصحح. وتتمثل أهداف السخرية في الحفاظ على قيم المجتمع وتكريس السلوك القويم، ونعي التطرف والغلو والغلط، وتأييد الموقف السليم على نحو مباشر أو غير مباشر، فهي تناكف التصلب والتطرف في الفكر والسلوك والفهم، وتدعو إلى المرونة والدماثة، وتتغيا تلاؤم الفرد مع المجتمع والزمان والمكان والمفهوم السائد، كما قد تنتقد التسلط والتعسف، وتسعى إلى ثقب جدار الفساد المستحكم والانحراف المستشري، مسهلة درب انهياره في النهاية .

وتقع السخرية من الذين يغضبون بشكل مبالغ فيه ومن المتنفجين والأدعياء وذوي النعومة المفرطة والجادين جادا ... والذين يخبطون خبط عشواء، أو ينتهكون الأعراف والتقاليد التي تواضع عليها الناس.[1] والسخرية وسيلة فنية لإعادة إنتاج الواقع، فالكاتب يستخدم (آلة تصويره) مبدلا النسب بين عناصر الصورة، وعدسته تنظر إلى الموضوع من خلال موشور يكسر حدود الأشياء فتكبر الزوايا وتنفرج جدا، أو قد تصغر وتصبح حادة جدا.[2]

ومن دواعي السخرية عند الشعوب، رؤيتها لها على أنها سلاح ماض ضد الغزاة والحكام، وتعويض عن ضعف وقوة مفرطين، بالاتجاهين السلبي والايجابي. وقد علل (اميل حبيبي) لجوءه إلى السخرية في أدبه بقوله : أ ـ أنه يرى في السخرية سلاحا يحمي الذات من ضعفها. ب ـ انه يرى فيها تعبيرا عن مأساة هي أكبر من أن يتحملها الضمير الإنساني.[3] ويتسع المدى أمام الساخرين ليشمل الصور والأساليب والحركات والسكنات والكلمات والإيحاءات والإشارات التي تحتمل النقد والتهكم والغمز واللمز. وكثير من الساخرين لا يستهدفون الضحك من أجل الضحك، بل يصدرون عن رؤية تجمع المتعة إلى جانب النقد.

وقد وجد في تاريخ الأدب العالمي والعربي ساخرون كثر نشير إلى بعضهم إشارات سريعة لنصل على عجل إلى لب الموضوع الذي نعالجه . ومن أولئك الساخرين أرستوفان الإغريقي صاحب مسرحية الضفادع، وسرفانتس الاسباني صاب رواية دون كيشوت، وبرناردشو الايرلندي المسرحي المعروف، وعزيز نسن القاص التركي المشهور

جدا. وفي أدبنا ظهر إمام الساخرين ،وهو الجاحظ، وقصته في وصف قاضي البصرة معروفة ومشهورة . وبهلول الذي اقترن اسمه باسم الخليفة هارون الرشيد، وابن الجصاص وبهاء الدين قراقوش، وابن زيدون صاحب الرسالة الهزلية التي كتبها على لسان ولادة هاجيا ابن عبدوس .. الخ[4]

وفي عصرنا لا بد أن نذكر الكاتب المصري إبراهيم المازني صاحب كتاب صندوق الدنيا، والكاتب الفلسطيني اميل حبيبي كاتب الروايات والمسرحيات المعروف .

أما في سورية، فقد حظيت القصة الساخرة بأقلام عديدة وبنماذج قصصية يصعب حصرها، لأن قسما كبيرا منها أدرج ضمن مجموعات متنوعة حوتها وحوت غيرها من القصص . ورغم ضخامة المدونة القصصية السورية، التي يؤرخ لها بالعام 1931، وهو عام صدور مجموعة" ربيع وخريف " لعلي خلقي، فان الباحث قادر على أن يقدم صورة نانورامية عن السخرية وتقنيتها في القصة السورية المعاصرة.

نشر عن هذا اللون القصصي، في العام 1990، كتاب بعنوان "الساخرون" للكاتب الساخر خطيب بدلة. وهو مجموعة من القصص تبلغ في العد 17 قصة كتبها 17 قاصا هم: أديب النحوي ،حسيب كيالي ،سعيد حورانية، فارس زرزور، وليد إخلاصي، محمد نور قطيع، وليد معماري، محمد كامل الخطيب ، محمود عبد الواحد، حسن م. يوسف، سامي حمزة، حكم البابا، حسين علي البكار، حاتم علي، أحمد عمر، مصطفى الحاج حسين.

والحق أن هؤلاء الكتاب ليسوا هم كل الساخرين في سورية وخاصة أن الكتاب الذي ضمهم صدر منذ عشرين عاما. ولكن الأهم فيه هو أنه أرخ للقصة الساخرة بالعام 1952، وهو العام الذي أصدر فيه حسيب كيالي مجموعته المذكورة سابقا. وفي وسعنا أن نضيف إلى أولئك الكاتب يوسف المحمود صاحب مجموعة "سلاما أيها السعداء"، ونجم الدين السمان صاحب مجموعة "الأنفاس الأخيرة لعتريس"، وابراهيم خريط كاتب مجموعة "حكايا ساخرة". ونجيب كيالي صاحب مجموعة "ميت لا يموت"، وآخرين كثيرين كتبوا القصة القصيرة جدا التي تعد السخرية ديدن العديد من كتابها.

والغريب أن الكتاب المذكور "الساخرون" أغفل اسم كاتب ساخر هام هو الدكتور عبد السلام العجيلي، فقد تأسست في دمشق وفي مقهى البرازيل عصبة سمت نفسها "عصبة الساخرين " كان من أعضائها سعيد الجزائري ومواهب كيالي وآخرون. وقد اختير العجيلي وزيرا لهذه العصبة. كما أصدر المرحوم صدقي إسماعيل جريدة كان يكتبها بخط يده سماها "الكلب" وممن كتب فيها الشاعر سليمان العيسى، وآخرون.

واذا أضفنا نتاج كل من ذكرنا ومن لم نذكر إلى مدونة القصة الساخرة في سورية نجد أنفسنا أمام كم هائل يصعب حصره .

واقترابا من النماذج سنتوقف عند قصص ساخرة لكل من حسيب كيالي، وعبد السلام العجيلي، وزكريا تامر، وخطيب بدلة، ونجيب كيالي، وابراهيم خريط، وعبير اسماعيل، ومصطفى حرويل، ومصطفى عبد القادر. ونحن على وعي أن عملنا هنا هو التمثيل، وليس الاستقصاء.

فحسيب كيالي (ت 1993) نشر أكثر من عشرين كتابا. وهو كما وصفه د. رياض نعسان آغا، كاتب للماحين، يحول المألوف إلى مستغرب. وقد وقفت عند قصته "الإغراء" من مجموعته "الحضور في كل مكان" فوجدته يسخر من نفسه، فهو يسرد علينا الآثار المدوية التي خلفها عليه استلامه لشيك قيمته "عشرة آلاف ليرة سورية" وذلك مقابل وساطة للقاء بين صديقين قديمين، في إحدى مدن الخليج، التي كان يعمل فيها .فهذه النعمة المفاجئة التي حلت عليه لخبطت كل أفكاره، وشلت تفكيره، وأصابته بالهلوسة أو كادت، فهو مثلا يعد المبلغ المرة تلو المرة، ويخطى في عده، ثم يعيد ليتأكد... ويقلب الدراهم ظهرا لبطن وبطنا لظهر، ويتخوف، وقد صار في غرفته في الفندق، من سارق مفاجيء يقتحم عليه غرفته، لذا يغلق الباب بطقتين، لا بطقة واحدة ... وتراوده فكرة مآلها أن جاره قد يفتح عليه الجدار الفاصل بينهما من اليمين، بل قد يفتح الجدار الجار الآخر من اليسار، فهو من الكرتون المقوى ... ولا ينسى أنه كان يودع في محفظته رواة "دكتور جيفاكو" لباسترناك، فيخاطب الكاتب الروسي بقوله : طق مت يا باسترناك لن أقرأك بعد الآن، فالطفرانون هم الذين يقرؤون ... وأخيرا وبعد يومين، يودع ثروته الطائلة في المصرف، ولكنه يتوعدها بأنه سيبعزقها ،كما بعزق منذ سنوات الألف ليرة التي كانت تمثل رصيده في أحد المصارف السورية، بعد تسريحه التعسفي من العمل في مديرية البريد.

والتقنية التي لجأ إليها كيالي قامت على إشارته إلى المكان بداية فهو إحدى مدن الخليج العربي، ثم نراه يعود إلى الماضي فيخبرنا عن تسريحه من الوظيفة ويسخر من السلطة التي رأت فيه خطرا شديدا. ويقدم للمفاجأة التي حلت به، معرفته بالصديقين، ويتوقف عند استلامه للشيك الذي قلب وجه حياته، ونراه يعظم الصغائر، ويصغر الكبائر، ويبدل زوايا النظر إلى الأشياء، فالجدار الفاصل بين غرفته وغرف جاريه كان يوفر الأمن والأمان، وإذا به الآن يضحي مصدرا للقلق، ويفكر بطرائق مختلفة كيف يمكن أن يسرق أو يغتصب ماله الطارئ... ونراه في سياق سرده وسخريته يعول على العامية أحيانا، ويستطرد أحيانا أخرى، والاستطراد سمة من سمات كتابة كيالي، ومن أمثاله مثلا "الل ابن عم الماش" و "الخير بخير والشر بغير" ومن عاميته: (بعزق، خربط، والسرنوقة). وبمثل هذه الوسائل كتب القاص حسيب كيالي قصصه الساخرة. والمعروف أن الكثير من شخصيات هذا القاص شخصيات مهمشة أو شعبية، ولهذا وصف بأنه

جاحظ القرن العشرين" (انظر محاضرة د. رياض نعسان آغا عنه في الشابكة. محرك البحث غوغل).

أما عبد السلام العجيلي، فهو صاحب أكثر من أربعين كتابا وحائز وسام الاستحقاق السوري . وقد طالعت له كتابه الساخر بامتياز "فصول أبي البهـاء" (دمشق 1986) فوجدت أن القاسم المشترك بين جميع قصصه المتساوية في الطول، هو انطواؤها على الحيل أو (القفشات) التي كان أبو البهاء يوقعها ضد الذين يلقاهم في حله وترحاله، فيوقعهم في شباكه على نحو يذكرنا بالحيل التي جاءت في مقامات الهمذاني والحريري.

ومن تلك القصص قصة تحكي كيف أن أبا الهاء أوقع بالدكتور سليم بالبئر التي كان يحفرها لموظفي دائرة الصحة التي يديرها. فقد تجاوز الدكتور سليم سلمان سلامة في مزعجاته وثقل دمه كل الحدود ... وذات يوم كلف هذا المدير أبا البهاء تنظيم جدول يتم من خلاله جرد مخازن مديرية الصحة التابعة له، تمهيدا للاستغناء عن بعض المقتنيات، أو إتلافها وإلقائها بالقمامة. فنظم أبو البهاء الجدول المطلوب في عشرين صفحة، وقدمه للدكتور سليم للتوقيع عليه، وأوصاه بأن يقرأه بدقة. ولكن المدير كان في عجلة من أمره، فهو مدعو إلى وليمة دسمة، وينبغي أن يكون أول الحاضرين، لذا لم يدقق في الجدول، فوقع في الفخ، بعد أن وقع على كل صفحة من فوق ومن تحت، كي لا يدس أحد شيئا لا يجوز الاستغـناء عنه. ولم يكن يدري أن أبا البهاء كان قد دس في الصفحة 12 من الجدول، وفي الثلث الأخير منها، وبين السطر المخصص لطاولة العمليات المحطمة والسطر المخصص لأنابيب الحقن الشرجية التي لا نفع منها (ولنتأمـل هذا الموضع) دس أبو البهاء اسم الدكتور سليم سلمان سلامة. وفي الحقل الموازي لاسمه كتب: مهترىء وتالف ومؤذ، وفي حقل آخر: يستبعد ولا يدخل دوائر الصحة بحال. وبذلك وقع الدكتور سليم على ما يضر به فعلا. ثم حمل أبو البهاء القوائم التي أعدها بخبث إلى معاون وزير الصحة في العاصمة، فوقع عليها... وفوجئ مدير الصحة بالصفحة الثانية عشرة من القوائم معلقة على باب غرفته.[5] وهكذا نرى العجيلي يقدم لنا المشكلة المتمثلة بثقل دم أحد المدراء وتطرفه في مزعجاته، ثم يرسم خطة للخلاص منه ساخرا من نهمه، وإيثاره للطعام على التدقيق في جدول ضم إساءة إليه، لأنه يجب أن يكون أول الحاضرين. مركزا على المكان الذي أدرج فيه اسمه، هازئا منه ومن سلوكه وغفلته، مطبقا عليه الحصار. فهو في النهاية "يداه أوكتا وفوه نفخ" كما يقول المثل العربي، والأهكومة هنا تنصب على التطرف المنبوذ والإساءة الواسعة اللذين لا مسوغ لهما.

ويبرز في ستينيات القرن العشرين قاص ساخر كبير هو زكريا تامر، الذي بدأ بنشر مجموعاته منذ العام 1960، وأولاها: "صهيل الجواد الأبيض". وسخريته سخرية سوداء، وتظهر غالبا في نهاية القصة، وهي موجهة أحيانا لفضح الزيف والنفاق حتى وان صدرا عن أعلى السلطات، وفي قصته "انتصار" يقول الكاتب إن الملك بعد أن اتفق مع

وزيره على فرض ضريبة جديدة سمع باحتجاجات الرعية، فتأثر، وهو صاحب القلب الرقيق، وتحنن على رعيته، فعزل الوزير متهما إياه بأنه المسؤول عن هذه المظالم، ففرح المواطنون. وينهي تامر قصته هذه بقوله: "غير أن الجباة في اليوم التالي تابعوا طوافهم على البيوت والدكاكين".[6] ومثل هذا الاستثناء الخاتم للقصة وقع في قصة "المتهم" في مجموعة تامر "الرعد" ففي هذه القصة تنبش الشرطة جثة عمر الخيام من قبرها ويحاكمونه، لأنه ذكر في أشعاره أن الخمرة تذهب الحزن، وشعره يثير الاضطراب، كما يفهمه القاضي، ويعكر الأمن، لذا يحكم عليه بالعودة إلى المقبرة ويهال عليه التراب. وينهي تامر قصته بقوله: "غير أن الحزن ظل مقيما يتابع نشاطه الهدام."[7]

والسخرية من السلاطين والولاة والحكام كثرت عند تامر كثرة واضحة، فهو كما كتب يوما كمال أبو ديب فنان الكشف والفضح والتعرية للمكبوت والمقموع. ففي قصة له بعنوان "الوالي الأبدي" يكتب زكريا ما خلاصته أن الوالي الجديد أصدر قانونا يبيح للمرأة الزواج بعشرة رجال. فاحتج الرجال، فخفض الوالي العدد إلى أربعة، ففرح الذكور.. ثم اكتشف الوالي الجديد أن سبب بؤس أهل مدينته هو المشي على الأقدام، فحظره، واستبدله بالمشي على أربعة. وأحب أهل المدينة ذلك، وازدهرت صناعة الأحذية للأيدي والأقدام ... ولما مات الوالي خلفه ولاة أخر، وأصدروا قوانين تلغي القوانين القديمة السابقة "لكن المشي على أربع استمر ونال مزيدا من التمجيد، لأنه وسيلة حضارية لمحو ما يوجد من فوارق بين المخلوقات التي تدب على سطح الأرض".[8]

وهناك قصص ساخرة عند تامر تنتمي إلى الأفق الاجتماعي، ومزج المنطقي باللامنطقي، و مقابلة القيم النبيلة بالقيم الهابطة. ومثالنا على ذلك قصة تامر في مجموعته" الحصرم" المعنونة بـ "الشركة". وفيها يشير تامر إلى أن زوجا وزوجة كانا يمارسان الخيانة أحدهما للآخر ... بدأ بذلك الزوج، وتبعته الزوجة . وكانت حجة الزوج هي أنه يفعل ذلك ليكتشف حبه لزوجته. وكانت حجة الزوجة مماثلة لتلك. وقد ظهرت السخرية بوضوح أشد حين كتب تامر في النهاية: ولم يتجرأ الزوج على تطليقها، لأن أباها غني وغير بخيل. واستمرا في العيش زوجا وزوجة يحاول كل منهما أن يثبت حبه للآخر.[9] وواضح هنا أن السخرية قد تمت من مفاهيم مغلوطة ومن سلوك منحرف ومن زيف في العيش ثابر تامر على انتقاده والتشهير به. وقد تم ذلك من خلال قفلة محكمة للقصة.

والقفلة المحكمة التي برع فيها هذا القاص السوري ختمت بها غير قصة، كما أن نقد الكاتب للتعسف والتسلط كان هاجسا من هواجسه، ففي قصته التصغير الأول يحدثنا تامر عن رجل يدعى عبد النبي الصبان وهو ضخم طويل القامة واسع الصدر... يعتقل هذا الرجل ليواجه تهمة فحواها: أنه يستنشق من الهواء أكثر من الحصة المقررة له، لم ينكر عبد النبي الصبان ذلك، وأرجع السبب إلى كبر رئتيه، فأحيل إلى المشفى،

ليغادره بعد أسابيع "رجلا جديدا ذا قامة قصيرة، وصدر ضيق ورئتين صغيرتين يستهلك يوميا هواء يقل عن الحصة المخصصة له رسميا." وسخرية تامر هنا موجهة إلى سلطة غاشمة متعسفة قراقوشية تتحدى طبيعة الخلق وناموس الكون، فتظن أنها تملك الهواء الذي يتنفسه الناس بالمجان، ولا يصح لأحد أن يتحدى حجم أملاكها، فأية مأساة تلك؟

ويظهر قاص رابع سوري اختص بهذا اللون السردي من القصص هو الكاتب خطيب بدلة الذي اختص بهذا اللون السردي، وهو كاتب مجموعة "امرأة تكسر الظهر" (دمشق 1994) ومجموعة "وقت لطلاق الزوجة" (دمشق 1998). وحوت المجموعة الأخيرة قصة عنوانها "البرنامج". وفيها يسخر الكاتب من ذاته بوصفه ضمير المتكلم في القصة، فهو اعتاد أن يهرب من منزله عند بث برنامج إذاعي معين كان يكرهه، في حين تقبل أسرته على سماعه بشوق. ذات يوم قرر أن يلعب لعبة ظنها ذكية. فحزم أمره وعزم على ما يسمى بالسيران، ولم ينس أن يدعو الوالدة، وابتاع لوازم السيران من لحم وخضروات وفواكه، وغرضه أن يشغل الأسرة عن سماع ذاك البرنامج المنفر. ولما جلسوا للغذاء سألته الوالدة هل سمعت البرنامج (تريد البرنامج المنفر ذاته) ؟ فقال لا والله يا حجة، الله يلعن الشيطان، من عبطتنا نسيناه. فقالت: أنا سمعته، وروت له أحداثه كلها دون زيادة أو نقصان.[10]

والسخرية هنا تمت من خلال التهكم على الذات، ومن خلالها انتصرت البراءة على التداهي، وانقلب السحر على الساحر، وتعكر المزاج بدلا من أن ينشرح. ووقعت خسارة تكاليف السيران دون أن تقطف الذات الراوية ثمرة ذلك. وهذه السخرية من الذات هي التي يريدها الكاتب يوسف المحمود من فن السخرية ويدعو إليها في أحد الحوارات معه. وقد تكررت نماذج من البراءة التي تغلب التخطيط في عدة قصص كان منها مثلا قصة ليوسف جاد الحق في مجموعته "وأقبل الخريف" وهي تشبه قصة خطيب بدلة شبها كبيرا.

السخرية والقصة القصيرة جدا

وازدهر فن التهكم والهزء كثيرا مع ازدهار كتابة القصة القصيرة جدا في سورية، فهي ركن أساسي من أركانها. ونتلبث عند نماذج لخمسة قاصين من كتاب هذا اللون وهم: نجيب كيالي وابراهيم خريط وعبير سليمان ومصطفى حرويل ومصطفى عبد القادر.

نشر نجيب كيالي مجموعته "ميت لا يموت" بدمشق عام 1996. وفيها تطالعنا قصة بعنوان "طلاب آخر زمن" وهي واحدة من 82 قصة قصيرة جدا. وتروي القصة أن أستاذا سأل طلاب الصف التاسع في مدرسته: من قتل عمر المختار؟ أجاب التلاميذ: ما عندهم خبر، و كيف يقتلونه وليس لديهم سكين أو شفرة؟ فغضب المعلم من جهلهم،

وزمجر فيهم لأنهم لا يعرفون الجواب السليم، ثم دلهم عليه. وفي الفرصة روى للمدير بعض ما جرى معه في الصف، فنط المدير ليظهر أنه يفهم على الطاير، وقال: ماذا يقتلون عمر المختار ولا يعترفون... أنت متأكد يا أستاذ أن القاتل من هذه الشعبة؟ وقبل أن يجيب المعلم، حمل المدير العصا ولسان حاله يقول: سأذهب لأحقق قبل أن يزيلوا آثار الجريمة. عندئذ انقلبت دهشة المعلم إلى حزن، وشعر أن عمر المختار قد مات في ذاك اليوم.[11]

وهكذا تتبدى السخرية من جهل المدير بوصفه شريحة ممن يتولون مناصب وهم غير أهل لها. وكانت قفلة الكاتب مزدوجة التأثير، فغباء المدير ترك الأثر الذي تركه موت عمر المختار. ومن أسرار السخرية إغفال زمن الحدث، وجعل الماضي يختلط بالحاضر، مما جعل التلاميذ يتوهمون أن ما جرى بالأمس قد جرى اليوم، وليس في ليبيا، بل في قاعة الصف بالذات... وهذا شأن يجعل بداية القصة تتجاوب مع نهايتها إذ ينتقل الموت الغابر إلى موت حاضر، فيموت عمر المختار مرتين مرة على يد الايطاليين، ومرة في نفس المعلم الذي عاين جهل المدير وغباءه.

وتطالعنا مجموعة قصصية للكاتب إبراهيم خريط عنوانها "حكايا ساخرة" كرست لفن السخرية بالكامل، واستضاء صاحبها بقول القائل: "ان المفهوم لا يكون مؤثرا إلا إذا تجسد في موقف أو مشهد". ومثالنا على المشهد الذي تمثلت به السخرية عند هذا الكاتب وارد في قصة بعنوان "مقابلة". فثمة متحدث مسؤول ظهر على شاشة التلفزة، وجهه صقيل وخداه متوردان وشعره مصفف جيدا، وعلى مكتبه أجهزة هاتف وصحف وأوراق . وبدأ المشهد بعرض مجموعة من الانجازات... سأل المذيع المسؤول: كيف أنجزتم كل تلك الانجازات ؟ أجاب": بجهودنا وخبراتنا، عملنا أربعا وعشرين ساعة في اليوم، بل أكثر من أربع وعشرين ساعة، وتجاوزنا الخطة المقررة بمئة وخمسين بالمئة. وأضاف: وشملت الإنارة كافة الأحياء والبيوت، وتخلصنا من انقطاعات التيار التي ...

وهنا تأتي المفاجأة، أو الإنارة الكاملة للتهكم إذ يقول الكاتب: "وفي تلك اللحظة غاب الصوت والصورة، وعم الظلام الهالك ولم يتابع المشاهد بقية المقابلة".[12] والسخرية هنا اعتمدت على الصورة والمشهدية والبرهان الذي لا يدحض، فانكشفت مزاعم الأدعياء والمنافقين والكاذبين، دون كلمة تذكر أو صوت يعلو. وكأني بانقطاع التيار لم يقطع النور فحسب، بل قطع لسان الدعي الكاذب.

وانتقل إلى كاتبة ثالثة من كتاب القصة القصيرة جدا، هي القاصة عبير إسماعيل، وقد صدر لها ثلاث مجموعات قصصية هي: للثلج لون آخر، وزمن البخور، وحكايات مقصوفة الرقبة. ففي "زمن البخور" نقرأ في قصة قصيرة جدا عنوانها "فخر" العبارات الساخرة التالية: "كان عليها أن تحشو رؤوس طلابها صباحا بقصائد الفخر

العربية. وكان عليها مساء أن تتابع ذاهلة أخبارا عربية كل ما فيها يقول لها: يا لك من كاذبـة".

والمفارقة هنا تمت من خلال البـــون بين ما يدرس في الصفوف وما يعاين في الواقع . مما سبب للمعلمة ذهولا وإحساسا بالنفاق والكذب، فهي تقول شيئا يرفع الرأس، وترى شيئا يحبط ويثبط ويخجل أحيانا. وامتدت سخرية هذه الكاتبة إلى عقول بعض المثقفين من خلال حوارية ما بين معلمة وتلميذ لها، فمقصوفة الرقبة صرخت في وجه أحد تلامذتها وعنفته، فرد ببرود: أوصاني أبي ألا أرد على بنت. ذهلت المعلمة وقالت: وماذا يعمل أبوك الجاهل؟ قال: أستاذ جامعي.[13]

ويعالج مصطفى حرويل في مجموعته "كلوز" عددا من الظواهر المغلوطة في مجتمعنا، فتحت عنوان "انتخابات" يكتب عن رجل لا يسميه، ولعله يمثل جماعة لا فردا: "رشح نفسه، أعد برنامجه الانتخابي: بناء، عمل، حرية التعبير، الأمن للمواطن... ألقى الخطب وزع البيانات، أقام المضافات. صدرت النتائج، لدواعي الأمن لم يعثر عليه حتى الآن".[14] وواضح أن السخرية هنا قامت على المفارقة التي تسمح لرجل بالترشح ثم تغيبه عن الوجود، لأنه خالف ما اعتاد عليه الناس، وما روضتهم عليه السلطة.

ويسخر حرويل في قصة ثانية من تفكير بعض النسوة اللاتي يشغلهن المظهر عن الجوهر، فتحت عنوان "محاضرة" نرى الحضور يصفق للمحاضر كثيرا ويجمع على أنها محاضرة قيمة . ولكنه هو يبحث عنها طويلا، فيراها قد جاءت إليه باسمة وراحت تهمس:" كنت رائعا يا حبيبي، ربطة عنقك مذهلة".[15]

وفي موضع ثالث يقيم هذا الكاتب سخريته، لا على عبارة مكثفة دالة، بل على حركة معبرة تقول الكثير دون تلفظ أو زعيق، ففي قصة "مكروفونات" يكتـــب حرويل: "خرج من المؤتمر، تراكض المراسلون، عشرات الميكروفونات بالقرب من وجهه، تكلم، تشدق، نظر ... تحولت المكروفونات إلى حشد من أصابع وسطى". فالرد على التنفج والكذب والادعاء والخواء، هو اهانة تتكفل بها الأصابع الوسطى، وليس شيئا آخر. والملاحظ هنا تعويل الكاتب على الفعل الماضي الذي يشير إلى الحركة، وعلى فعل ذي دلالة تكفلت به إصبع واحدة من الكف، ولكنها لم تجيء بصيغة المفرد، بل بصيغة الجمع، إمعانا في تقييم سلبي صدر عن الجميع لذلك المتحدث موضوع الأهكومة.

وكتب القاص مصطفى عبد القادر العديد من القصص الساخرة في مجموعته "المطرقة اللينة" (دمشق 2010) فتحت عنوان "ديمقراطية" قال: فرزت الأصوات الانتخابية، فرسب ،بدأ يكيل السباب والشتائم، ولعن الساعة التي فكر فيها بالترشح. تقدم منه أصحابه مواسين، قالوا له: لا تحزن يا صديقنا، خيرها بغيرها. أجابهم بصوت

يتقطع ألما: لست حزينا على الرسوب.. فقط أريد أن أعرف أين ذهب صوتي الذي وضعته بيدي في الصندوق.

وقوام السخرية هنا جهل مصطنع يشبه المعرفة بمصير صوت المرشح الراسب. ومن خلال ذلك وجه نقد لاذع لانتخابات مزورة ومزيفة يغلب فيها الشكل على المضمون. ومن أشكال السخرية القائمة على المفارقة عند هذا الكاتب التعويل على كلمة تحمل معنيين: قريب وبعيد، فالتلميذ يسأل في قصة "فوتوكوبي": ما الفرق بين كلمتي غنم ورعية. فيجاب بأن كليهما قطيع في نظر الراعي.[16] فالقطيع لفظة تنتزع من سياقها المألوف لتقول شيئا مغايرا لمعناها، شيء مفعم بالدلالة، فبدلا من دلالتها على ما يدب على أربعة صارت تدل على ما يدب على اثنتين. وكذلك لفظة الراعي، فهي ذات مدلولين: راع، وسلطان. الأول معروف معهود، وحيز نشاطه محدد ومقنن، والثاني يعني هنا المسؤول عن رعية من البشر، لا رعية من البقر.

ويستثمر هذا الكاتب كلمة "الكمامات" واسم المفعول من جذرها، ليناوش مقولة حرية التعبير المفتقدة في محيطنا العربي، رابطا بين الكمامات التي تقي من الغازات السامة، وكم الأفواه الذي يقي من "طول اللسان". فالمواطنون في المملكة يحجمون عن استلام الكمامات إبان الحرب، لأن أفواههم مكممة منذ أمد بعيد.[17] فها هنا استثمار لطاقات اللغة ذات المشترك اللفظي، الذي يحوله الكاتب إلى لون من الأضداد، فشتان بين التهكم لاتقاء التسمم، والتهكمم المفضي إلى حبس النفس أو خنق الروح، الأول فيه نفع وسلامة، والثاني فيه ضر وظلامة.

خلاصة

وهكذا نخلص مما تقدم إلى أن تقنيات السخرية في النماذج السابقة كانت تقوم على ما يلي :

1. تصوير وقع الغنى المفاجئ على فقير بائس، مما أصابه بهلوسات تحمل طرافة وتطرفا، إضافة لاستثمار المزج بين الحاضر والماضي، واستخدام العامية، والتعويل على المثل الشعبي، كما في قصة حسيب كيالي " الإغراء ".
2. وضح الشخص موضوع السخرية في حال ينم عن غلاظة تؤول إلى كراهية، ووصف الحيلة التي توقعه في المطب، بسبب انشغاله بتوافه الأمور عن كبائرها، كما في قصة العجيلي المشار إليها سابقا.
3. إنهاء القصة بقفلة تسخر من كل مجرياتها السابقة، كما في قصة تامر "انتصار" وقصته "المتهم"، ومزج المنطقي بغير المنطقي، والتعبير عن حقيقة الشيء بضدها، فالخيانة تسمى حبا في قصة تامر "الشركة". إضافة إلى الهزء من تعسف السلطات وظلمها، وخاصة حين تريد لي عنق الأشياء لتلائم تفكيرها المعوج كما في قصة "التصغير الأول" في مجموعة "الحصرم" لتامر.

4. بعض التهكم كان يتم على الذات كما في قصة خطيب بدلة" البرنامج " وفيها تفوز السذاجة والبراءة على الحذاقة والزكانة، فالأم البسيطة تحبط خطط ابنها المدبرة وتسمعه ما لا يريد سماعه . كما تهكم حسيب كيالي أيضا على ذاته هو الآخر.
5. قام لون من السخرية عن طريق حذف الزمان والمكان من الحدث أو من السؤال، مما سبب اختلاط الأمور بعضها ببعض، كما في قصة نجيب كيالي "طلاب آخر زمن". إضافة الى سخرية مريرة من غباء مدير المدرسة وتسرعه وانفعاله الذي لا مسوغ له البتة، وذلك لأنه لم يقدر الأمر حق قدره.
6. بعض أشكال السخرية قام على المشهدية، ولم يقتصر على حـوار بين شخصين. فالمسؤول الذي تشدق بإنارة كل الأحياء، فوجئ بانقطاع الكهرباء وهو يتكلم، فغابت الصورة وغاب الصوت... ولا شك أن مشاهدي التلفاز آنئذ تبسموا، بل ضحكوا ،حين عاينوا، بالبرهان المحسوس، كذب المسؤول وادعاءاته الفارغة.
7. وقع الهزء في نهاية القصة في أحيان كثيرة ،وخاصة في القصة القصيرة جدا، وذلك من خلال حضور يقابله غياب، كما في قصة انتخابات لمصطفى حرويل، والغياب هنا كان لمرشح الانتخابات الذي اختفى لأسباب أمنية. ولا شك أن لعبة الأمن هنا اسطوانة مشروخة يؤتى بها لتسويغ تفكير سلطة غاشمة.
8. اتجهت السخرية أحيانا إلى رصد الفارق ما بين التاريخ والحاضر، أو ما بين مفاخر الماضي ومخازي الحاضر، على نحو ما رأينا في قصة "فخر" لعبير إسماعيل.
9. وكان لدينا تقنية التحول المفاجئ الذي يبث حياة في الجماد، فلم نسمع إلا في نطاق خيال علمي أن آلة تحولت إلى كائن عضوي يؤدي غرضا بعينه، وهو إصبع الإنسان، كما في قصة حرويل "مكروفونات"، فالمكروفونات تحولت إلى أصابع وسطى، بعد أن عاين أصحابها السطحية والنفاق والكذب في تصريحات أحد المسؤولين. والمعروف أن إشهار الإصبع الوسطى في وجه أحدهم تعبير عن اهانة مرة يعرفها الناس جميعا.
10. تعد المفارقة ركنا أساسيا في فن التهكم . وقد عول عليها كثيرون. ومنهم مصطفى عبد القادر الذي كان يصور حدثا، أو يقيم حوارا، تمهيدا لإعطاء لفظة واحدة معنيين متباينين كما في ألفاظه: القطيع، والراعي، والكمامات. والمفارقة كما يقول توماس مان: "هي ذرة الملح التي تجعل الطعام مقبول المذاق".
11. عول بعض القاصين على أهمية العنوان في إثارة السخرية، وإنشاء المفارقة، فعنوان "فخر" لا ينطوي على ما تفاخر به المعلمة بل بالعكس تماما . وكذلك الشأن في عنوان "ديمقراطية" عند مصطفى عبد القادر. وهناك عنوانات لمجموعة كاملة تنطوي على السخرية بعينها . كما في عنوان" سنضحك" لزكريا تامر وغيره.
12. إن السياق كان أساسيا في صنع السخرية بكل أنواعها وتجلياتها فالأهكومة دون سياق ملائم لها، تبدو بلا معنى البتة. ومن هنا بدا كثير من الكتاب على وعي بأن اختيار اللفظة بحذق وتدبر، يؤدي غرضها بنجاح واستساغة. وعليه فان فن السخرية ليس عملا سهلا، بل هو فن لا يحذقه إلا أصحاب الموهبة والفطنة والزكـانة.

الإحالات

[1] ـ ينظر مقال اندريه جيبسون : ملاحظات عن القصة والفكاهة ، ترجمة نصر أبو زيد ، مجلة فصول ، مصر ، مج 2 ع 2 ص 173 .

[2] ـ ينظر : مقال رضوان قضماني : في الأدب الساخر ، مجلة دراسات اشتراكية ، دمشق 1998 ع 2. نيسان ص 44.

[3] ـ انظر روبرت كامبل : أعلام الأدب العربي المعاصر ، بيروت 464/1 وما بعدها .

[4] ـ انظر: عادل الفريجات : بحوث ورؤى في النقد والأدب ، دار المركز الثقافي ، دمشق، 2007 . ص 115 وما بعدها

[5] ـ فصول أبي البهاء، ص ص 83 ـ 90.

[6] ـ النمور في اليوم العاشر، بيروت 1978 ، ص 126.

[7] ـ الرعد، دمشق 1970، ص 30.

[8] ـ سنضحك، بيروت 1998 ص 191.

[9] ـ الحصرم، ص 100.

[10] ـ وقت لطلاق الزوجة، ص 154. 155.

[11] ـ ميت لا يموت، ص 25 وما بعدها .

[12] ـ حكايا ساخرة، ص 62. 63.

[13] ـ حكايات مقصوفة الرقبة ، ص95 .

[14] ـ كلوز، ص 49

[15] ـ كلوز، ص 87

[16] (المطرقة اللينة، ص 19

[17] المطرقة اللينة، ص 63

مصادر ومراجع الدراسة

ـ جيبسون ، أندريه : ملاحظات عن القصة والفكاهة ، مقال في مجلة فصول ، القاهرة 1982 مج 2 ع 2 .

ـ قضماني ، رضوان : في الأدب الساخر : مقال في مجلة دراسات اشتراكية ، دمشق ع ك 2 ـ نيسان 1998 .

ـ كامبل ، روبرت : أعلام الأدب العربي المعاصر ، بيروت 1996 .

ـ الفريجات ، عادل : آ ـ بحوث ورؤى في النقد والأدب ، دمشق، دار المركز الثقافي 2007 .

ب ـ النقد التطبيقي للقصة القصيرة في سورية ، دمشق 2002.

ـ بدلة ، خطيب : آ ـ الساخرون، دمشق ، دار الأهالي 1990.

ب ـ وقت لطلاق الزوجة ، دمشق 1998 .

ـ نعسان آغا ، رياض : محاضرة له عن حسيب كيالي ، نشرت بعضها على موقع رياض الفكر على الشابكة .

ـالعجيلي ، عبد السلام : فصول أبي البهاء ، دمشق ، دار طلاس 1986.

ـتامر ، زكريا : آ ـ النمور في اليوم العاشر ، بيروت 1978 .

ب ـ الرعد ، دمشق 1970 .

جـ سنضحك ، بيروت ، دار الريس 1998 .

د ـ الحصرم ، بيروت ، دار الريس 2000 .

ـ كيالي ، نجيب : ميت لا يموت ، دمشق ، وزارة الثقافة 1996 .

ـ خريط ، إبراهيم : حكايا ساخرة ، دمشق ، اتحاد الكتاب العرب 1998.

ـ إسماعيل ، عبير : أ ـ زمن البخور ، دمشق ، دار كيوان 2006

ب ـ حكايات مقصوفة الرقبة ، دمشق، دار الرواية 2010 .

ـ حرويل ، مصطفى : كلوز ، دمشق 2004 .

ـ عبد القادر ، مصطفى : المطرقة اللينة ، دمشق ، دار معد 2010 .